وصف ربوة دمشق

ومتنزهاتها وميدان القبق

وقفت في كتاب (ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر) لابن طولون الحنفي الصالحي المتوفى سنة ٩٥٣ هـ على فصل بديع استطرد إلى ذكره في وصف ربوة دمشق ومتنزهاتها وما كانت عليه من العمران لعهده ووصف ميدان القبق ودقائق ما فيه . فرأيت أن أنقله إليكم ليكون تتمة لما كتبه صديقنا الكاتب الكبير الأستاذ معلوف .

وانما دعاني لذلك أمران « الأول » اشتمال هذا الفصل على فوائد يعز العثور عليها كل حين حتى في كتب البلدان فلا سبيل إليها إلا بانتجاشها من مثل هذه الدفائن وهو شيء موكول للمصادفات . « والثاني » ان ما بأيدينا من معاجم البلدان كتب قبل القرن العاشر الهجري فالوقوف على شيء من وصف العمران حوالي ذلك العصر مما يصبو اليه الباحثون في هذا الموضوع . واليكم نص ماذكره في ترجمة حيدر بن محمد بن جمال العصر أبي ذر[1] الشافعي قال :

« وسألني عن متنزهات دمشق فقلت له أعظمها الربوة وكان بها دكاكين لسمانين وبواردية وأقساوي وفقاعي وفرن وتنور وأربعة شرائحية وطباخ غير من يأتي اليها من البساتين وغيرها من المتعيشين في الطبالي وغيرها .

وكان بها اربعة مساجد وجامع بخطبة ومدرسة يقال لها المضجية[2] موقوفة على مدرّس حنفي وطلبته . وكان بها الحمام المشهور فانه من محاسن دمشق ببركة ناهضة وشبابيك شرقية وشمالية وقبلية وغرف . وكان بها مهدان شرقي نهر بردى على الارض وغربيه يصعد اليه بسلم حجر . وكان بها التخوت « كذا » وهو قصر مرتفع على سن جبل به قاعة لبوابة وطبقات على هيئة الايوان ينظر الجالس هناك من مسافة يوم لو لم يكن حائل وبه مأذنة ومسجد وميضأة وتحته نهر ثورا وفوقه نهر يزيد ويصعد اليه من سلم حجر بناه نور الدين الشهيد للفقراء فان الاغنياء لهم قصور . وكان بها خمسة مقاصف اثنان شرقي نهر بردى وثلاثة غربيه وفي كل واحد منها بيت المقاصفي وعنده فرش

(١) في نسخة الاصل للمؤلف النصراباذي نسبة الى نصراباذ في العجم (٢) في الاصل المنبجية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومخاد ولحف للمتنزهة . وكان بها مكانان لعينين إحداهما تسمى الملثم قبال المهد الشرقي والاخرى السخنة شمالي المقاصف الغربية وعليها قبة بين نهر بردى والقنوات وهي من العجائب فان ماءها فاتر صيفاً وشتاءً وشماليها اربع عيون تبان عند احتراق الماء ثنتان ماؤهما بارد وثنتان ماؤهما سخن . وكان بها خانان لربط الدواب قبليها . وكان بها ميضأة كبيرة شمالي المهد الشرقي على حافة بردى وهذا النهر أصل أنهارها السبعة والثاني يزيد والثالث ثورا والرابع بانياس والخامس القنوات والسادس الداراني والسابع المزي . وكان بها العاشق والمعشوق وهما برجان للحمام في لحف الجبل الغربي وشماليها برج عتيق يسمي العذول .

وكانت هذه الربوة في أول الزمان تقصد بالزيارة ثم تغير أمرها وصار يقع بها المناكر وتقصدها الناس يوم السبت والثلاثاء دائماً وبعض الناس يوم الاحد والاربعاء ويقال لها المحفل تطلع اليها فيها الحلقية والمشعبذون والمخايلية[1] والحكوية وهذا في ايام الصيف وأما[2] الشتاء فلها ناس تسمى المجاورين ومع ذلك لاتخلو من الصلاة جماعة في المساجد وغيرها . ثم خربت ثم عمرت وهكذا مراراً والآن بقيت مأوى الوحوش . وفي الوادي شرقيها في طريقها من جهة المدينة قطية وقطية مكان كان به سمان وشرائحي ومقاصفي وقد خربت . وشرقيها في الطريق المذكور الجبهة وهو مكان على حافة نهر بردى به مسجد ودكاكين للمعيشة ومقصف له مقاصفي عنده فرش ولحف وبركة لها في الربيع وردية « كذا » تقصد وعلى كتفها حمام النزه خربت وعمرت مراراً والآن خراب . وشرقيها في الطريق المذكور المرجة وبها القصر الابلق . وكان من عجائب الدنيا يشرف على الميدان الاخضر شرقيه أنشأه الملك الظاهر ركن الدين عقيب رجوعه من حجته في المحرم سنة ثماني وستين وستمائة كذا رأيت هذا التاريخ أعلى بابه الشمالي وعلى أسكفته ضرب خيط من رخام أبيض ووسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس وبابه الآخر ينفذ الى الميدان . وفي واجهته البلقاء ثلاثون شباكاً سوى القهاري ووسطه قاعة بأربعة لواوين[3] قبلي وشمالي في صدرهما شاذروانان وغربي وشرقي في صدر كل منهما ثلاثة شبابيك فالغربيات مطلات على الطريق الآخذ

(١) هم اللاعبون بخيال الظل . (٢) في نسخة الاصل « في الشتاء » (٣) أي اربعة إيوانات أو أواوين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلى الحمام وتربة الصوفية والشرقيات مطلات على الميدان : وعلى واجهته الشرقية مائة أسد « منزلة صورها[١] » وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها بابيض في أسود وشماليه على حافة نهر بردى قصر شيخنا الزين ابن العيني وقبليه أعلى الكحجانية (كذا)[٢] قصر شيخنا قاضي القضاة الشهاب ابن الفرفور وغربيه قصر شيخنا الشهاب ابن الصميدي وكان لكل من هذه القصور بوابون صيفاً وشتاءً وقد خرب جميع ذلك في الدولة العثمانية ولم يبق الا واجهة القصر الابلق الشرقية . وكان من ثم الى الربوة من جهتي واديها قصور وجواسق . وابنية لم يبق منها إلا القليل .

وفي هذه المرجة جرت العادة بان ينصب فيها الذي يرمى عليه النشاب على ظهور الخيل وصفته انه يشتمل على خمس قوائم الاولى المسماة بالركيزة وهي تدق في الارض بدقاق[٣] لانها كالخازوق لكن في رأسها حديدة مركبة صفة الطوق إن لم توثق بها والا تنكسر وفي اسفلها حديدة كصفة سن الرمح لكن أغلظ منه بشيء يسير ويكون دقها في الارض قدر ذراع . والثانية السفلى وطولها سبع أذرع ونصف وعلى رأسها حديدة مجوفة مركبة فيه طولها نصف ذراع منها مجوف بغير خشب ربع ذراع ويكون رأس الخشبة المركبة عليه هذه الحديدة مدوراً وغلظ هذه الخشبة وجنسها كصفة القنطارية التي يلعب بها وتسمى الرمح ومن جنسه وفي أسفلها بخش فيه سير يربط في رأس الحديدة التي في أسفل الركيزة ثم يربط على رأسها وفي اسفل الركيزة سير يربط به حبل البكرة والا ماتقف ويوثق الرباط والا يحصل فساد في القبق . والثالثة غلظها كغلظ الاولى وطولها سبعة أذرع ونصف وربع يركب منها في الحديدة المجوفة التي هي في القائمة الثانية قدر مايصل وصفة هذه القائمة كالقنطارية لكنها أدق من الثانية . والرابعة وتسمى قائمة البكرة طولها كطول الثالثة وفي أسفلها حديدة مجوفة مركبة مثل الاولى وفي رأسها بكرة وفي البكرة حبل وفي قائمة البكرة رزة حديد في وسطها وبعدها رزة ثانية بين الرزتين ثلاث أذرع والحبل الذي في البكرة داخل في الرزتين وفي أسفل القائمة بعد الرزتين

(١) الظاهر ان في العبارة سقطاً وان الساقط بعد لفظ صورها « بأسود في أبيض » وفي نسخة الاصل لاتوجد هذه العبارة « منزلة صورتها » (٢) وفي نسخة الاصل الكججانية (٣) في الاصل دقاق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أطناب من قنب اربعة ان لم يدقوا (كذا) في الارض بعد ان يقام القبق والا يخاف عليه من السقوط بالهواء وطول كل باع أحد عشر باعاً (١) . والخامسة قائمة دقيقة يوضع فيها القبق بعد الرابعة طولها سبع أذرع توضع في رأس القائمة التي فيها البكرة ثم يربط الحبل في ثلث القائمة وفي أسفلها ويجر في البكرة بعد وضع القبق . وارتفـــاع القبق جميعه ثمانون ذراعاً بالحديد . وأما صفة الرمي عليه فهي ان يمسك المعلم عمود القبق وأربعة أنفس يمسك كلٌّ واحد منهم الحبل الذي هو طنب القبق ثم تجر العصا المركبة على القبق بالحبل المركب في البكرة ويربط على الركيزة ويقف الراكب الرامي في رأس الميدان وطوله خمسة وعشرون فرساً(٢) وهو لابس مطري(٣) ويجعل في بند وسطه ثلاثة عيدان من نشاب القبق ويعلق القوس في ذراعه الشمال وهو ماسك اللجام ويسوق الفرس في قوة مشواره(٤) ويشد روحه ويحزق أفخاذه على أجناب الفرس ويبعد المهماز عنها ويأخذ القوس والنشاب بسرعة ويكبر(٥) واذا قرب الى القبق بقدر طول قوس أو أنفس(٦) ويمد(٧) ويطوي(٨) وكلّ ذلك في (مشوار) فرسه وهو سائق ثم يصوب بيده الشمال والاسناد تارة بها وتارة باليمين ثم يعود إلى رأس الميدان وهو سائق ويأخذ القوس والنشاب سريعاً ويكبر(٩) فاذا وصل إلى قرب القبق يميل ويمد تحت الركاب وينبرم(١٠) ويدور وسطه ويجعل مرفقه على مقدم الامازي(١١) ويدور يديه ويقلب قبضته الى فوق جهة القبق ويدور وجهه ويرمي على القبق ادتندى(١٢) رأس الفرس القبق وشرطه نزول السهم تحت القبق وكل ذلك وهو سائق في (مشوار) واحد ويكرر الرمي على قدر خاطره(١٣) ويختمه بثلاثة أسهم (الاول) من قبل أن يصل إلى القبق ويكبر ويرمي السهم (الثاني) تحت القبق ويكبر ويرمي السهم (الثالث) من أعلى

(١) لعل الصواب احدى عشرة ذراعاً (٢) لعل الصواب «قوساً» يريد رمية قوس كما يفهم من عبارته الآتية . وهكذا في الاصل (٣) أُصطري في نسخة الاصل ولعلها خطري (٤) عامية بمعنى الشوط (٥) في الاصل ويكبر (٦) عامية بمعنى «اكثر» (٧) لعل في العبارة سقطاً أو تحريفاً ويظهر انها تستقيم باسقاط الواو التي قبل «يمد» (٨) لعلها «يصوب» (٩) ويكبر (١٠) ينفتل (١١) وفي الاصل الا مازيم ولعلها الا بازيم (١٢) في الاصل تندي ولعله «إـا عدّى» كما سيأتي (١٣) بمعنى «كما يشاء ويريد»

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكفل إذا عدى الفرس القبق وكل ذلك في (مشوار) الفرس وطول الميدان المقدم ذكره . ويكون نزول الثلاثة الأسهم متوالية واحداً بعد واحد متصلين وحسن قوة الأسهم(١)ان يكون أربعين رطلاً بالشامي حتى تنزل الثلاثة الأسهم بعضها وراء بعض من علو سن الأسهم . وفي العود إلى رأس الميدان يرمي أيضاً على القبق ثلاثة أسهم في (مشوار) راجلاً (٢) (الأول) حين سرفة (٣) القوس و (الثاني) عند قرب القبق و (الثالث) حين عدت الفرس القبق يلفتها سريعاً ويرمي عليه . والأحسن أن يرمي تارة على قوس زنته (٤) خمسة وأربعون رطلاً شامياً بنشاب يسمى مجراة وتارة على قوس قوته خمسون رطلاً شامياً أيضاً ويسمى هذا القوس الشرخ وقد رمي على هذه الطريقة بحضرة السلطان الاشرف قايتباي وقد تفرج على هذا الرمي قاضي القضاة قطب الدين الخيضري من قصره بالشرف الأعلى تجاه هذا القبق وكان لهذا القصر سبعة شبابيك من حديد وفي وسطه فسقية منصبة (٥) وخارجه صفة قمرية بطشطية من حجر المرمر وبقرب هذه الصفة حمام وقد زال هذا كله .

وكان تجاه هذا القبق من جهة القبلة أسفل الشرف القبلي بستان يقال له النمورة وهي اسم لزهر السفرجل في حفلته تهرع الناس إليه للنزهة وكأنه لم يكن هناك .

ومن متنزهاتها ميدان اليلكي (٦) وطوله على ظهور الخيل مائة وتسعون فرساً وطول رمي اليلكي مائة وأربعة وعشرون قوساً وفيه كومان الاول من جهة الرأس مسنم طوله ثلاثة أقواس والثاني مقابله وطوله أيضاً ثلاثة أقواس وعرض وجه الكوم قوس والبارز بينهما ثمانية عشر بعد مائة قيساً (٧) . وقرب هذا اليلكي بستان السيرجي ويعرف بالجودة تهرع الناس إليه في أيام حفلته وهو التفاح لكثرته به . ومنها بستان المرشدية (٨) بالقابون التحتاني تهرع الناس إليه في يوم خميس البيض للفرجة على زهر اللوز لكثرته به . ومنها(٩) ست الشام بالوادي التحتاني تهرع الناس إليه في أيام حفلة

(١) لعل الصواب القوس (٢) في الاصل « واحد » (٣) في الاصل « سوق الفرس» (٤) الغالب في القوس التأنيث وقد تذكر (٥) في الاصل «متسعة» (٦) الغالب انه البلكي بالباء (٧) لعله قوساً ولعلها قياساً أو قوساً (٨) في الاصل الوشدية (٩) لعل الصواب بستان ست الشام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الزهر من حيث هو موجود كزهر المشمش وهو الغالب فيه . ومنها المحلات لدود القز بين عدة أنهر قرب ضريح الشيخ رسلان تهرع الناس إليه في أيام حل جوز القز حتى يصير حريراً للفرجة عليه . ومنها باب كيسان أحد أبواب دمشق تهرع الناس إلى ظاهره في أواخر الشتاء للفرجة على المسابقة بين الخيل في مكان يقال له طابق البرينات[١] . ومنها الشيخ سعيد[٢] قبلي المزة تجاه محل استسقاء أهل دمشق وقد أدركت به منبراً من حجر حتى قبته وإلى جانبه محراب من حجر ودائره حيطان أربعة من ابن يهرع الناس إلى هناك للفرجة على الوادي الفوقاني ذهاباً وإياباً ويزورون الشيخ سعيداً في[٣] زاويته وفوقه قميص اذا ذكر[٤] الفقراء يبقى هذا القميص يهتز وان لم يكن هواء وانما يهرعون إلى هناك أيام قطع الأنهر لتعزيلها ورد مائها على نهر بردى أسفل هذا الوادي ومنها قرية عين الفيجة أصل هذا النهر يهرع الناس إليها أيام استواء[٥] القراصيا فانه لا يوجد بدمشق أحسن منها ولا أكثر ولأجل ذا[٦] يذهب منها أحمال في علب على بغال إلى سلطان مصر في دولة الجراكسة . ومنها قرية برزة شرقي جبل قاسيون يهرع الناس إليها لزيارة مقام الخليل عليه السلام أعلاها أيام استواء[٧] تينها فانه لا يوجد اذ ذاك أحسن منه ويكون التين الماسوني[٨] قد فرغ . ومنها الخميسيات قبلي مغارة الجزع[٩] وانما سميت بذلك لأن مبتدأها كان لزيارة الأموات والآن للفرجة يهرع إليها الناس أيام وجود البلح[١٠] وحب الآس وربما يختصر بعضهم فيجلس عند عين الكرش ويسمى ذلك المكان بالمقصبة » . انتهى ما أورده بنصه وعامية عبارته .

مصر القاهرة : أحمد تيمور

---

(١) في الاصل (اليريكات) (٢) لعل الصواب « مسجد الشيخ سعيد » (٣) وفي الاصل « وهو مدفون في زاويته » (٤) في الاصل « ذكروا » (٥) عامية بمعنى «نضج» (٦) كان (٧) نضج (٨) في الاصل الماسيوني وفي محاسن الشام للبدري الماسوني (٩) في الاصل « الجوع » وهو الاصح (١٠) لعله الثلج .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net